المشرق

اصل الدين فلسفياً

لحضرة الاب الخوري بطرس مبارك مدير الدروس في مدرسة الحكمة العامرة

خطابٌ القاهُ في غرفة القراءة

اذا سرَّحنا رائد الطَّرْف في العالم كلهِ وطالعنا اخبار المتجوّلين في جميع انحاء الارض وبين الشعوب المختلفة نرى جامعاً واحداً يجمع الشعوب الحاضرة على اختلاف طبقاتها ولغاتها وعاداتها اعني بذلك الاقرار والاعتراف بوجود عالم حقيقي غير منظور اسمى من العالم الذي نحن فيهِ وبوجود علاقة متبادلة بين هذين العالمين

ثمَّ اذا تصفَّحنا تواريخ الامم السالفة التي وطئت الارض قبلنا ثمَّ حصدتها يد المنون على الطريق التي نحن سالكوها لرأينا ان ذلك الجامع عينهُ كان يجمع اجدادنا كما يجمعنا نحن ايضاً

حقيقةٌ واحدة اتَّفق ويتَّفق فيها البدو والحضَر الهمَج والمتمدّنون الفلاسفة والاميون وفي الجملة فاذا أَصغْنا سمعاً الى دوي الاعصر القديمة والحاضرة نسمع اصواتاً تتصاعد من كل جهة صوتاً من المشرق صوتاً من المغرب صوتاً من الشمال والتيمن وهذه الاصوات تلتئم جميعها وتنضمّ بصدًى واحد وهو وجود الدين في كل آنٍ واين حتى لا تكاد توجد مدينة او قرية الَّا وُجد ويوجد فيها معبدٌ هو شاهد عياني على وجود الدين فيها

وذلك حادث عياني ينادي بهِ ارباب الاديان على اختلاف مذاهبهم ويقرّ بهِ

العقليون ولا يستطيع الماديون والطبيعيون الى انكارهِ سبيلًا

هلمَّ بنا ايها الكرام نبحث بحثًا مدققًا عن السبب الذي دفع العالم باسره الى الى ان يدينوا بدين. وعن العلَّة الكافية لهذا الاتفاق الغريب على حقيقة ذات اهميـة كبرى نظير الدين الذي عليهِ تدور رحى اهمّ اعمالنا وعنده محطُّ آمالنا

اعلم ان للجواب عن سبب هذا الاتفاق طريقتين: الاولى تاريخية وضعيَّة ومآلها ان الله سبحانهُ اعطى للانسان الاول مع الوجود معرفة وجود عالم غـير منظور واوحى اليهِ اخصَّ حقائق تعلقهِ بهذا العالم غـير المحسوس فتأصل هذا الاعتقاد في الانسان الاول وبواسطتهِ انتقل بالتقليد الى افراد ذريَّتهِ وهكذا الى جميع امم العالم المختلفة

فهذه الطريقة وان صحيحة المبدإ والنتيجـة ليست التي اسلكُها في خطابي بل توخَّيت الطريقة الثانية الفلسفية ومآلها على فرض عدم وجود الوحي فهل كان في وسع الانسان على ما هو عليـهِ من الادراك والارادة الحرَّة والنوازع الطبيعية الصحيحة ان يتَّصل الى معرفة وجود مقرّ هناء ورغد فوق هذه الارض وادي البكاء والشقاء ووجود سلَّم تصل هذه بتلك ؟ فاجيب نعم. والنتيجة تكون لا بدّ لراحة العقـل من الدين كما انهُ لا بُدّ لتسكين الجوع من الطعام. ولقد سلكتُ في بحثي هذا مسلك لابلاس العالم الفلكي الشهير عنـدما اراد ان يبيّن من حالة الارض الحاضرة ما امكن ان تكون عليهِ منذ البدء قبل ان تخرج من جوفها الجبـال الشامخة وتكتسي بالازهار النضرة والاشجار الخضرة وعلى الله الاتكال (١

ولقائل ان يقول لسنا الآن في الكنيسة حتى نسمع خطابًا عن الدين. فاجيب: ايا تُرى هل وُضع الدين لينحصر ضمن جدران الكنيسة ؟ ومع ذلك ليس تجود يدٌ الَّا بما تجد هذه بضاعتنا فان راقت في اعينكم فلكم ولنا والَّا فلنا وحدنا

١

اذا امعنَّـا النظر في حالة الانسان الحاضرة نراه دائمًا قلقًا لا تستقرُّ لهُ حال ولا يهدأ لهُ بال ما بقي على ظهر الارض حيًّا. وكما ان الامواج المتعدّدة والارواح المختلفـة تتلاعب بالمركب الصغير على سطح البحر ولا تدع ان يقرّ لهُ قرار كذلك الاشغـال المتنوعة والعلائق المتعددة مع ما يتصل بامور المعيشة تتنازع حيـاة الانسان من جهة

١) وكنتُ اود ان ابسط القول في اجزاء هذا الخطاب لكنَّ ضيق المقام يحول دون المرام

ومن جهةٍ أخرى تتلاعب فيها ارياح الانفعالات والعواطف النفسانيَّة فتارةً يجذبهُ الحب وأخرى يبعدهُ البغض. اليوم تفرحهُ الآمال وغدًا يحزنهُ اليأس. وبالاجمال نرى الانسان من المهد الى اللحد تتقاسم اوقاتهُ وتستغرق ساعات حياته حربان حربٌ من الداخل وحربٌ من الخارج. ومجموع هذه العوامل الداخلية والخارجية يدعوها العلماء العالم الاختباري. لان هذا المجموع موضع اختبار الانسان وموكولٌ لخدمتهِ ادبيًا وماديًا فيسرح فيهِ المرء ويمرح على الرحب والسعة. على ان هذا العالم الاختباري مع اتساعهِ واختلاف مواضيعه يضيق بالانسان فلا يملأ فراغ قلبه ولا يشبع امياله بل تراه غالبًا يلتفت يُمنةً ويسرةً كأنَّ لهُ وراء هذا العالم اغراضًا شتَّى لا يجدها فيهِ ومثله مثل العصفور المسجون في القفص. نعم يجد هناك مأكلهُ ومشربه مهيَّئًا امامه ولكن تعوزهُ الحرية التي بدونها لا يهنأ لهُ عيش البتة. يتقلَّب الانسان في خيرات هذا العالم ولكن رعاك الله تغلغَلْ الى غَوْر قلبهِ تجد هناك فراغًا عظيمًا لا تملأهُ خيرات الدنيا باسرها ولهذا تسمو مقاصده الى العُلى ويطلب راحته من السماء. فلو فُرض المحال ايها الكرام ولقي الانسان على الارض ما يملأ وهدة قلبه الواسعة ويشبع شهواتهِ كلها ويملّكهُ الراحة في هذه الحياة الدنيا لما وُجد الدين في الدنيا بتةً وما رفع الانسان نظرهُ نحو العلى وما كنتم ترون هذه الهياكل المرتفعة ولا هذه المعابد المزيَّنة وأيَّانَ توصل الانسان بواسطة اكتشافاته وتقدمهِ في المعارف والفنون الى ان يخرج من بواطن الارض ما يكفيه مؤنةً لسدّ عوزهِ المادي والادبي ولإشباع عقله وقلبهِ فذلك اليوم يكون اعظم يوم في تاريخ البشريَّة ويبقى ذكرهُ مثل اهرام مصر على ممرّ الأيام والدهور لانهُ يكون الحدَّ الفاصل بين الانسان والدين. في ذلك اليوم العظيم يطرق الانسان ولا يعود يرفع طرفه نحو العلى فتدقّ اجراس الحزن على وفاة الدين في اربعة اقطار المسكونة ويدفن الانسان كلَّ دين وكل علاقة مع الله تحت انقاض المعابد كلها. ولكن تشجَّعوا ولا تضطرب قلوبكم ايها الكرام لان ذلك اليوم الذي فيهِ يجد ابن آدم على الارض ما يجيب على سؤالات عقلهِ ومطاليب قلبهِ الذي فيهِ تشبع شهواتهُ من خيرات الارض كما يشبع البهيم من اعشاب الفلا ويذهب فينام خالي البال ناعمه ما بزغ ولن يبزغ فجرهُ على بني البشر ما خفق قلبٌ وجال فكر

دعوا الملحدين والعقليين والماديين يترجَّون المحال دعوهم في غيّهم يعمهون ويعاقون

آمالهم بحبال من عنكبوت دعوهم يركضون وراء أخيلتهم واذا سمعتم يوماً ان شمس ذلك النهار اخذت ترسل اشعّتها الى العالم من فوق قمم الجبال فلا تصدّقوا بل قولوا لنفوسكم ان هؤلاء يسعدون بالحلم ويرضون من الحقيقة بالباطل ومن الماء العذب بالسراب. ولماذا شمس ذلك اليوم لن تشرق ابدًا. اولًا : لان العقل يطلب جوابًا صريحًا من العالم الاختباريّ عن ثلاثة اسئلة تقف في وجهه في كل آن ومكان كلّما اختلى بنفسه كانها اشباح مخيفة ولا يجد لها جوابًا مقنعاً ألا وهي: من اين اتيتُ والى اين اذهب وما هي الطريق التي يجب ان اسلكها كي احصل على غايتي . فهذه الاسئلة تنهش عقل الانسان نهش الذئاب الجائعة وتسلب راحتهُ. وثانياً : لان القلب يطلب السعادة الكاملة ولا يجد في عالم الكون سوى اشياء باطلة كاذبة واليكم بيان ذلك مرتباً مفصلًا

(السؤال الاوّل) من اين اتيت ؟ سؤال مهمّ مقلق

اما أنهُ (سؤال مهمّ) فلانّا نرى الناس يبذلون قصارى الجهد في سبيل انتسابهم الى اجداد شرفاء قد عُرف لهم مجد البأس او مجد العلم او مجد الرتب العالية ويحتفظون بكل اثر يؤيد شرف اصلهم وكرامة محتدهم ويفتخرون بذلك على من سواهم. وما ذلك سوى نتيجة علمهم ان سموّ الغاية مترتّب على شرف الاصل. ألا ترى ان المعادن الكريمة كالالماس والزمرد تزين تيجان الملوك ولا يُتّخذ الخسيس منها كالحديد والنحاس الّا للاعمال المبتذلة ؟

امّا انهُ (سؤال مقلق) الخواطر يتبع الانسان العاقل اينما حلّ وحيثما توجّه عالماً كان او جاهلًا. فلأنّ الانسان لا يرى حولهُ سوى علل ومعلولات فلا مسبّب بلا سبب ولا معلول بلا علّة . يرى لمعان البرق يعقبهُ قصيف الرعد والمطر ينشأ عن تلبُّد الغيوم فلا دخان بلا نار ولا حركة بلا محرّك ولا ابن بلا اب ولا محبوب بلا محبّ ولا حصاد بلا زرع وعلى هذا النمط ينتقل الانسان مدفوعاً بقوة المقايسة وبالميل الغريزي الذي يدفعهُ طبعاً الى البحث عن العلّة عند ما يرى المعلول. الى ان يستفتي نفسه قائلًا: وانا اشرف المخلوقات الارضية القابض على زمام منافعها تُرى من اين اتيت. فلا يرى مجيباً وحينئذٍ يضطرب عقلهُ ويقلق باله من هذا السكوت الرائع بالنظر اليهِ وحدهُ. يسأل الرياح الاربع يسأل الكواكب والنجوم يسأل شرائع الكون المادية والادبية فلا يجد مجيباً على سؤالهِ. نعم

انا نأتي من حيث لا ندري ومن العبث والخطإ ان نطلب الجواب من نواميس التناسل . فهذه وان اجابت عن بعض ما نرغب الجواب عنهُ فانها تقصّر عندما تصل الى الحلقة الاخيرة من هذه السلسلة . لانهُ اذا توصلنا بواسطة التاريخ والتناسل الى ان نصعد الى ابوينا الاولين فالمسألة نفسها ترجع بقوةٍ اعظم . من اين اتى ابوانا الاولان ؟ هنا تقف معارفنا الاكيدة . هنا ينقطع حبل مداركنا ويستولي على بصيرتنا الطبيعية ظلام حالك فنبتدئ نخبط خبط العشواء .

وكفاك شاهدًا على ما يأخذ العقل من الارتباك لما يرى من المذاهب في حلّ هذا المشكل . ومتى تضاربت اقوال الاطبّاء في شأن المريض فذلك دليلٌ على ان المرض عُضال وحياة العليل في خطر . واما تلك المذاهب فليس من وراء عدّها ألّا اضاعة الوقت على غير طائل . ومن الآراء الفائلة ادّعاء جماعة من العلماء ان اصل الانسان من كمالٍ حدث في الطّبيعة على مرّ السنين والدهور او هو حدثٌ اوجدهُ الاتفاق . اذ كل ذلك ينبذهُ العقل فلو كان في وُسع سنّة الارتقاء العمياء ان تكون علّةً لمعلول كهذا عجيب في دقة تركيبهِ الطبيعي وكامل في صفاتهِ الادبية نظير الانسان لعبدتُها واتخذتُها لي الهًا . ولو صحّ انّ الاتفاق ألّف اعضاء الانسان ونظمها ونمّ باسراره الى الدماغ البشري فجاء على ما هو عليهِ من احكام الترتيب مع تعدُّد الاعمال المتباينة لسجدتُ لهُ وقلت لهُ : ايها الرب ربنا ما اعجب اسمك . ولكن هيهات هيهات ان يصحّ المنام فهل يخرج من العوسج تين او من الشوك عنب ؟ فمن اين لسنّةٍ عمياء ان توجد الانسان صاحب البصيرة الوقّادة والفكر الثاقب . ومن اين لعدم النظام ان يكون علّةً لمثال النظام وانموذج الترتيب

وفضلًا عن ذلكَ فان الانسان كائن مؤلف من نفس وجسد واذا كان العلم والعالم يعجزان عن بيان اصل الجسد على ما تقدّم فهما عن بيان اصل النفس الروحية اعجز . اذ من البديهي ان لا يملك الّا المالك فمن لا يملك عشرة غروش فكيف يستطيع ان يُعطي الفًا ومن ثم يبقى سؤال الانسان عن اصله بلا جواب شافٍ . وكيف يستريح الانسان والحالة هذه واصعب حالات النفس احتمالًا حالة التردُّد والريب . وكيف ينام خلي البال من يهجس اثناء الليل واطراف النهار في البحث عن اصول الاشياء التي حوله . كيف يسكن ضميره وهو الذي يتوسّد الكتب ليطلع على اخبار السلف ويقتحم اخطار

السفر ليعلم ما في القطب وهلمَّ جرًّا. ألعلَّ هذه الاشياء اهمّ عنـدهُ من نفسهِ ؟ فلا غرو اذن ان بقي الانسان قلقاً مهما تكاثرت عليهِ الاموال وتلونت الملذات

(السؤال الثاني) من اين اتيت لا ادري فهل اعلم الى اين اذهب. ان المسافر يسأل اولًا الى اين يذهب كي يسير نحو الغرض لئلا يطيل السير باطلًا وتفوتهُ الغاية هكذا الانسان المسافر على وجه الارض يسـأل العلوم المختلفة يسأل النجوم السيَّارة والجبال الراسخة والابحر الواسعة الى اين اذهب الى اين اذهب. وما من مجيب. نعم ايها الكرام حسب ظواهر الامر نذهب جميعًا الى اللحد وكما ان المياه المتساقطة على الجبال تنحدر طبعاً الى البحر حيث لا تعود تُعرف هكذا نحن فان قوَّةً لا تُردّ ولا تُدفع تجرُّنا قسرًا الى القـبر هناك تتساوى الاحوال وتنتهي الآمال هناك ينحلّ جسدنا هذا ويرجع كل عنصر منهُ الى اصلهِ. ولكن ما عساهُ يلمُّ بالنفس التي تفوق كلَّ ما هو تحت الشمس شرفاً وجمالًا وبهاء. هل تموت مع الجسـد ؟ وما عساه يحل بالنور الطبيعي نور العقـل الذي يضيء امامنا كمصباح نيّر في طريق هذه الحياة المظلمة ؟ والى اين منتهى ذاك الفكر الثاقب الذي يسابق البرق ويفوق النسيم رقةً واعتدالًا ؟ وهل يضمحلّ ذلك البحر العجَّاج بحر العواطف الداخلية والآلام النفسانيـة التي نشعر بها طيَّ الضلوع ؟ سَلوا الجثَّة عن النفس. سَلوا النفس بعد انفصالها من الجسد. اسألوا علماء الطبيعة . اسـألوا الفلاسفة. هل نموت كلنا وهل ميتة واحدة للانسان وللبهيم ؟ وهل من حياة بعد الموت فالجواب بعد البحث ينحصر في هذه الكلمة : لا نعلم العلم الشافي. وعليهِ فان هذا السؤال « الى اين اذهب » يبقى دائماً نصب عيني وينخر فؤادي كما ينخر السوس اصول الشجر

على انهُ وان سكت العلم والعالم عن تبيان حالة النفس بعد الموت فالسكوت عن الجواب ليس دليلًا على العدم اذ كم وكم من القوى الطبيعية بقيت ساكتةً مدفونة في اجرام الارض حتى اتت يدٌ حاذقة فاخرجتها الى العيان ؟ فدونكم الكهربائية مثلًا التي تصنع العجائب في أيامنا أما بقيت مطمورةً في الاجرام الارضية حتى اخرجها منها كُلفاني وُقلتا. فالسكوت اذًا ليس هو العدم. ولهذا قال شاتوبريان: الدين زهرةٌ منبتها القبر وليس للقبر معنًى بدون الدين

(السؤال الثالث) من اين اتيت لا ادري الى اين اذهب لا اعلم فهل لي من نور

ينير قدميَّ كي لا اعثر في طريق هذه الحياة ؟ وهل من مرشدٍ يهديني الى الصراط المستقيم متى اعتسفتُ عنهُ ؟ نعم يوجد نورٌ وهو الضمير (وهنا اختصر الكلام تفاديًا من الملل) وكلّ يرى ضوءه داخل جنانه ويقرأ من خلالهِ هذه الكلمات : لا تقتل لا تزنِ لا تسرق حِدْ عن الشر واصنع الخير . وانا دليلٌ عليهِ لا يُرَدّ وهو ان كل من قصد عمل الشر فانهُ يتطلب الظلمة والخفاء . وعُمّال الخير يطلبون النور . النسر والباز يملكان الجو مدة النهار واما البوم والخفّاش فسلطانهما في الليل . الايل والحمل يرتعان في المروج الخصبة بعين الشمس واما الذئب والضبع فيسطوان تحت جنح الليل

على اننا ايها الكرام . وان كنّا نشعر بوخز الضمير وصوته يدوي غالباً في اعماق قلوبنا فمع ذلك لا ندري من اين يأتي ذلك الصوت ومن هو الصارخ وهذه الشريعة الطبيعيّة من سنّها علينا ومن ينتقم لها او يجازي عنها ان خيرًا فخيرًا وان شرًّا فشرًّا اهو موجود في هذا العالم ام في عالم آخر لا نعلم . نعم قد ظنّ العجم ان ذلك القاضي العادل هو « مِثْرا » اي الشمس لانها ترى بعينها العظيمة كل ما يحدث على الارض . اما الهنود فزعموا انَّ ڤاروتا اي الجوّ هو المنتقم لصراخ الضمير . والماديون اختصروا الامر بانكار مهماز الضمير وبالنتيجة وجود قاضٍ لهُ . غير ان كل ذلك قد سقط اليوم امام العلم الحاضر . رأيتم كيف ان العلم والعالم الاختباري يعجزان عن الجواب على اسئلة العقل فلننظرنّ الآن اذا كان في وسعهما ان يجيبا على مطالب القلب البشري لكن « تجري الرياح بما لا تشتهي السفن »

لا يندّ عنكم ان ليس من شيء وان خطيرًا يلهي خواطر الانسان عن التفكر الدائم بالسعادة ولا من نوازل وان تعاظمت . ولا من مصائب وان تلوّنت تثبّط الانسان عن انتجاع مناجع الآمال وتعليل النفس ابدًا بحياة اهنأ واسمى من هذه الحياة الدنيا اليها يكون مرجع اعمالهِ ومنتهى آمالهِ ما زال حيًّا على وجه الارض سواء كان عالمًا او جاهلًا غنيًا او فقيرًا . ولهذا ترون الانسان يتهافت على خيرات الدنيا تهافت الفراش على الشهاب ظنًّا منهُ انهُ يسدّ بها جوعهُ ويروي عطشه او يجد فيها ما ترتاح اليهِ نفسه لكنهُ وا اسفاه يرجع دائمًا بصفقةٍ خاسرة . ومما يقضي على كل عاقل بالعجب العجاب انهُ كلّما ازداد المرء انقيادًا لنفسه وتطوّح في ملذات الارض وكسب المال وتحصيل الشرف والسعي وراء الشهوات ازداد شوقًا عظيمًا الى السعاده ورغبةً في

طلبها . ان الاسد يتربّص في عرينهِ راصدًا فريستهُ حتى اذا ما هصرها وحصَّل طعامهُ سكن جأشه وبات خليًا مستريحًا امَّا الانسان فانهُ يترامى على الملذات كالايل الظمآن الى المياه العذبة فيشرب كؤوسها حتى آخر نقطة ومع ذلك فلا يروي غليلهُ بل يزداد عطشًا وشوقًا الى السعادة فهو اشبه شيء بالنار التي تزداد سعيرًا كلما ازدادت وقودًا وقصارى القول نرى الانسان من ابتداء حياتهِ الى نهايتها لا يألو جهدًا من السعي وراء خير لا يدركهُ

انظروا البشر يفرون اديم الارض ناشدين السعادة منذ ثمانين قرنًا . فسلُوهم علَّهم وجدوها . اسألوا الاموات حيث السرو شامخ برأسهِ نحو العلى من فوق مقابر تضمَّنت فخفخة الانسان اسألوا الاحياء كبارًا وصغارًا اغنياء وفقراء علماء وجهالًا اسألوهم علَّهم وجدوا ما تشتاق اليهِ قلوبهم . فمن المقابر والقصور من المدن والقرى من السماء والارض يرنُّ في اذانكم صوت ذلك الملك الذي قال عن نفسه : « كلُّ ما ابتغتهُ عيناي لم ادعهُ يفوتها ولا منعتُ قلبي من شيء . باطلة الاباطيل وكل شيء باطل » وفضلًا عن ذلك فان الخيرات العالمية كاذبة تغشي بصرنا ببهرجتها الخارجية فنظن ان السعادة بالمجد او بالمال او بالملذات وعندما يبيّن لنا انَّا قبضنا عليها نرى انَّا كالقابضين على الهواء نفتح الكف فلا نجد شيئًا نسعد بالحلم ونحزن عند اليقظة ونحن كما نحن مائتون معذَّبون

٢

هذه حالة الانسان ادركها العقل من اول وهلة ولم يتوصل الى حلّ عقدتها ومعرفة اسبابها فحار في امره وهتف نظير فولتر وهو على فراش الموت : « النور النور » ولكن من اين النور بين قراقر الموت والشقاء . واصبح كمن اصابتهُ حمَّى شديدة يتململ على فراشهِ ويتقلب ظهرًا لبطن علَّهُ يجد ما يطفئ احتراقه فلا يجد الى ذلك سبيلًا فصاح من اعماق قلبه مخاطبًا كل ما حولهُ نظير فيلوكتات لمَّا شكا امره الى الصخور المتاوحة لهُ في جزيرتهِ : أعدلٌ ان اكون انا وحدي عرضةً للعذاب والآلام والموت . اعدلٌ ان ملحة العالم يكون اقل حظًّا من طير السماء وذئب الغاب . اعدلٌ ان البعوضة الصغيرة ودودة الصخر الحقيرة تجدان قوتهما وراحتهما والانسان مالك العالم قلق كريشة في مهبّ الريح تتنازعهُ عوامل الكدر فلا تُبقي عليهِ ولا تذر . وانتِ ايتها الطبيعة يا من اظهرتِ ذاتكِ امًّا حنونة لجميع المخلوقات صنعتِ العصفور للطيران فكوَّنتِ لهُ

جناحين وابحتِ لهُ الجوّ مجالًا. اعطيتِ ارز لبنان العالي صلابةً تسخر بقوة العواصف العظيمة واوليت زنبق الوادي صلابةً ولينًا لمقاومة النسيم الساري فلماذا انت بخستِ حقّ الانسان وحدهُ. خلقتِ لهُ عقلًا ثاقبًا وتركتهِ يهيم في وادي الضلال لا يعلم من اين اتى والى اين يذهب. اعطيتهِ قلبًا شعورًا اوسع من الخيرات الدنيوية فامسى كالعصفور الوحيد على الاشجار يفتش عمّا يعوزه فلا يجد. واوّاه ايها الكرام كم هو مؤثرٌ دوي وصراخ اولئك الفلاسفة الذين لم يرضوا سوى الاختبار هاديًا. وكم هي محزنة زفرات قلوب اولئك الشعراء الذين لم يعرفوا في غير خيرات الارض سعادةً. وكنت اودُّ ان لا اُسمعكم منها شيئًا لولا ضرورتها لكمال موضوع كلامي

قال جوفروا الفيلسوف الفرنساوي بعد ان نبذ الدين ظهريًا: «من اين يأتي السلام اذا كان لا يعلم الانسان من اين اتى والى اين يذهب. وكيف يهنأُ العيش متى كان كل ما هو حولنا اسرارًا والغازًا. فمن طلب السلام وهو يجهل اين مسيره فلقد طلب المحال»

وقال مان دي بيران بعد ان ذاق مرارة الكفر: «انما اعظم احسان الدين للبشر انقاذُهم من حالة الريب التي هي سمٌّ زعاف للمعيشة وآفة اخترعها العقل لعذابهِ». والشاعر جورج فارسي اعترف علنًا «انهُ نهك قواه واراق ماء حياتهِ منذ استأصل من قلبهِ عاطفتي الايمان والمحبة». وادمون شرّر الشاعر الالماني قال لاحد اصحابهِ: «ان الكفر قلّل عدد الخالصين الى السماء ولكنهُ كثّر عدد الحزانى والاشقياء على الارض لان الدين هو طبيعيٌّ للانسان». وغير هؤلاء كثيرون من فلاسفة وشعراء وكتبة الاعصر الخوالي قد افصحوا عن ارتباك العقل واضطرابهِ ما دام بعيدًا عن الدين. فقم ايها العقل وقف عند شاطئ بحر هذا العالم وانعم النظر فيهِ علّك تجد وراءه ضالّتك. فينقشع ظلام الجهل وتتبدد عن سمائك غيوم الكآبة

ان كريستوف كولومب صاحب العلم الراسخ والفضيلة السامية والفضل العميم لمّا انتج من كرويّة الارض وقياسها انهُ لا بُدَّ من وجود عالم آخر غير الارض المعروفة وقتئذٍ كان يذهب غالبًا الى شواطئ البحر ويرمي بناظريهِ الى تلك السهول الزرقاء وقد تصاعدت من فؤاده زفرات الشوق الى تلك الديار الجديدة التي لم يكن يراها

الّا بعين العقل فيوماً ما وجد على الشاطئ اعشاباً لم تكن معروفة في العالم القديم فكانت لهُ بمثابة كتاب مفتوح أُرسل اليهِ من الارض التي كان مزمعاً ان يفتتحها فشدَّ مسافرًا بين هجمات الخواطر وعند ما لمح عن بعد تلك الاراضي الجديدة هتف وكل من معهُ بفرح لا يوصف: « هوذا الارض هوذا الارض »

هكذا صنع العقل البشري في اكتشافهِ العالم غير المنظور . بعد ان قاس اطراف هذا العالم الارضي والمادي وعرف انهُ يقصر عن تفسير وجوده الذاتي لكونهِ حدثاً عارضاً من الممكن ان لا يوجد انتج انهُ لا بد للعالم من موجد خارجي عنهُ ازلي واجب الوجود في ذاتهِ والّا لزم ان يوجد هذا العالم قبل وجودهِ اذ ترتّب عليهِ ان يعمل قبل ان يوجد وذلك ضرب من الحال . ونهض عندئذٍ نهضة الابن الشاطر قَصْد التخلص من الجوع والعري ووقف على شاطئ بحر هذا العالم الاختباري وحدق ببصيرتهِ فلاح لهُ من خلال الموجودات انهُ لا توجد غاية بلا وسيلة ولا وسيلة بدون غاية ولا عضو بدون عمل ولا عمل بدون موضوع يوافقهُ ولا عين بلا الوان ولا صوت بلا آذان ولا طير بلا جناح ولا اسد بلا انياب ومخالب وتلك سنَّة طبيعية لا تُنسخ . وحينئذٍ اشرقت عليهِ من خلال المقايسة المنطقية هذه الحقيقة العامَّة وهي لا بدَّ للنوازع الصحيحة ان تصل الى ما تنزع اليهِ . وعليهِ فلو لم توجد السعادة حقيقةً لما تمكَّن في اعماق قلبي الحي ذلك الميل الذي لا يُغلَب نحو الحصول عليها . فمن الضرورة اذًا ان توجد في مكان ما ولا بُدَّ من ان احصل عليها عاجلًا او آجلًا لانَّ من اوجدني عادل وسنن الطبيعة احكام عامة لا يُفلَت منها ولا تقبل الاستثناء . والحال اني لا اجدها على الارض فاذن لا بُد من وجود عالم آخر غير العالم المنظور اجد فيهِ ما يشفي أوامي و يسدّ وهاد فؤادي العميقة . اذ لا بُدَّ للنوازع الصحيحة ان تصل الى ما تنزع اليهِ . وعلى هذه المنوال عرف ايضاً أنهُ لا بد من الوصول الى جواب مقنع على سوالات عقلهِ الصوابية واذا كان لا يتسنى لهُ ذلك في هذه الحياة الدنيا كما ذكرنا فلا بد من حياةٍ اخرى حيث يعلم من اين اتى والى اين يذهب ومن ينتقم لصراخ ضميره او يجازيه على ما يفعلهُ من الصلاح فعلى سلَّم هذه الحقائق صعد العقل وحام مثل النسر وحدق ببصرهِ الحادّ الى ما فوق واخذ يجول في فسحات ذلك الجو الصافي جولان الهائم وما ارتفع الحجاب وظهرت امام بصره تلك الفسحات العظيمة وانقشعت تلك الغيوم المتلبدة عن ذلك العالم الجديد

حتى صعـدت من صميم قلب الانسان ترانيم الفرح والابتهاج فهتف مثل مريم اخت موسى عند خروج بني اسرائيل من بحر الاحمر ومن عبوديَّة المصريين « الرب عزي وتسبيحي قد كان لي خلاصاً » (١) فتدفقت عليـهِ الانوار واكتنفتهُ من كل جهة وظهرت لهُ اسرار وجوده وعرف ان القادر على كل شيء قد ابدعهُ من العـدم الى الوجود وان اليهِ مرجع اعمالهِ وغاية آمالهِ وهو مشترع ضميرهِ وموضوع سعادتهِ القصوى. فعلى هذا القياس المنطقي كان العقـل ارتفع رويداً متدرجاً بالحقائق لو لم يوجد الدين يكفيهِ مؤنتهُ ويهديهِ الى سواء السبيل ولو افترضنا عدم الدين حقيقةً كان العقل قد اخترعـهُ على النمط المذكور لان الدين ضروري لراحة العقل كما ان القوت ضروري لراحة الجائع ولهذا نرى الناس قد اتفقوا على الدين كاتفاقهم على ضروريات الجسد كالمأكل والملبس والذَّوْد عن العرض وحبّ الوطن وهلما جرًّا

ومالي والاسهاب في حقيقة وجود الدين امام كرام رضعوا مبادئهُ مع الحليب فنشأُوا عليهِ . يفضّلون الدين على كلّ خيرات هذا العالم ويفتخرون في انهم حفظوا وديعـة الايمان وصانوها من كل شائبـة الضلال . لا زلنا واياكم محافظين على هذا الكنز الثمين الذي فيهِ وحدهُ سعادة المرء وخلاص الشعوب

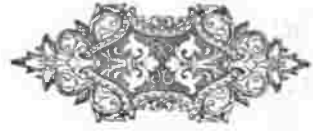

١) خروج ف ١٥ عد ٢